نشأة

الديانة المسيحية في لبنان

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت

حضرة الخوري بطرس غالب

١

سيدي الرئيس

قبل ان اشكرك على ما تلطفت به من جميل الثناء ، إيذن لي ان أحيي بعاطفة التأثر ذكر ذلك الراهب المتكمّل ، والعالم المقدام ، المأسوف عليه كثيرًا الاب لويس شيخو ، الذي جمع بين سذاجة الطفل وسعة علم نادرة المثيل في الشؤون الشرقية . فانهُ ، رحمه الله ، ما احتفظ بما اكتنزه من المعارف بل سعى السعي الموفق الى نشره بما اذاعه من المؤلفات وما القاه من المحاضرات

فاني ، ان عجزت الآن عن الاسف الشامل الذي عمّ البلاد لفقده ، فما صوتي الّا صدًى لما سمعته ورأيته . ويحق للتاريخ الكنسي الشرقي ان يلبس الحداد على العالم الذي تفانى في كشف ما استطاع من اسرار اجيال النصرانية الاولى في الشرق . ولا يمكن ان نطرق هذا الباب دون ان ترتسم صورته امام اعيننا فان خسارته ليس بالهيّن الاستعاضة عنها . عسى ان يكون نال جزاء العملة الصالحين النشيطين

والان تحت اشراف هذا الفقيد الجليل ، اشرع في الكلام عن الموضوع الذي دُعيت لبسطه امامكم . على انهُ لا بد لي من القول اوّلًا انك يا حضرة الرئيس وصفتني لهؤلاء الكرام وصفًا اوقعني في حيرة وارتباك . غير اني التمس من كرم اخلاقهم ان ينظروا اليَّ بعين الرفق اذا لم أقم بما قد يتوقعونه مني

استنادًا الى ما وعدتهم به . فليس لي الّا ان اعرب لك عن شكري لشعورك الرقيق واقدم بكل جرأة على طرق الموضوع الذي اقترح عليّ وهو: نشأة الديانة المسيحية في لبنان .

* * *

ان لبنان المقصود من خطابي هذا انما هو لبنان اليوم ،التاريخي والجغرافي ، الذي اعيد الى تخومه الطبيعية بفضل مساعي غبطة البطريرك اللبناني الجليل ومساعدة الدولة الفرنسية النبيلة . يحدّه قبلةً رأس الناقورة ، وشمالًا النهر الكبير ، شرقًا قمم لبنان الشرقي ، وغربًا بحر الروم

فلبنان هذا لم يدخلهُ الدين المسيحي دفعةً واحدة ودون صعوبة ؛ بل اخذ ينسلّ بادئ ذي بدء في المدن الساحلية، لان فتحها كان أيسَر من فتح غيرها ، اذ ان اليهود المتنصرين ما كانوا ليروا محذورًا في التبشير بالانجيل في الجهة الجنوبية من بلادنا بما انها كانت في نظرهم جزءًا من ارض الميعاد . وكان لبنان هذا منذ القديم منحصرًا في اقليمين كنسيين : اقليم فينيقية البحرية ، وقاعدة مطرانيته مدينة صور ؛ واقليم فينيقية لبنان ، وقاعدة مطرانيته حمص . وكان الاقليم الاول يشتمل على الساحل من مدينة عكا حتى مدينة اورتوزيا(١ في بلاد عكّار . والثاني يضم السفح الشرقي من لبنان وسهل البقاع والسفح الغربي من انتيلبنان . اما هذا الاقليم الاخير فانه اقتطع وسلخت منهُ مدينة حمص كرسي مطرانيته .

ويخيَّل اليَّ ان هذا التنظيم قد كان نتيجة التبشير بالانجيل الذي تمّ في عصرين غير متقاربين . فكان انهُ لمّا اكمل الرسل عملهم التبشيري في السواحل فتبعهم فريق من سكان مدنه ، جعلوها اقليماً كنسياً مستقلًا وعيّنوا لها رعاة ولّوا عليهم اسقف مدينة صور

واعلم ان المخلّص لهُ المجد قد وطئ ارض فينيقية الساحلية فاتى صور وصيدا وروى بعضهم انهُ زار مدينتنا بيروت . وقد ورد في انجيلي متى ومرقس ذكر مجيئهِ الى منطقتي صور وصيدا

١) هي الآن أرتوزي قرب النهر البارد (لامس)

ولا ريب ان المعلم الالهي كان يخرج احياناً خارج اراضي اليهودية بل يترك اراضي الجليل ايضاً لكي يخلو الى نفسه متأملاً ثم يعيد الكرة على الفريسيين وعلماء الناموس المرائين . وفي آخر مرّة قدِم الى اراضي لبنان انبأ رسلهُ انهُ سيسلّم الى ايدي اعدائه ليميتوه على انهُ في اليوم الثالث يقوم . وكان هذا الدور الاخير من حياته على الارض قريب الحلول

* * *

ان المهمة التي القاها الاب السماوي على عاتق يسوع لم تكن محصورة ضمن نطاق معلوم ، او زمن مقيَّد . ولذا يمكننا التصريح والتأكيد انه قد نادى بالحقيقة امام سكان هذه البلدان ليقوم بحق رسالته اولاً ثم ليكافئ اهل صور وصيدا نظير تشوقهم الى التعرّف اليه ؛ فانهم ما اكتفوا بان اتوا اراضي الجليل القريبة منهم ليسمعوا تعليمه بل انطلقوا الى اورشليم ذاتها . ولذا جاز يسوع الى اراضيهم ليشفي سكانها على ما ارتأى القديس ايرونيموس

وفي واقع الحال ، ما كاد السيد المسيح يجتاز تخوم الجليل حتى وافتهُ امرأة كنعانية فانطرحت عند قدميه متوسلة ان ينقذ ابنتها من شيطان كان قد تسلّط عليها . لكن يسوع لم يلتفت اليها ولم يستجب سؤلها ، حتى اعلنت بايمانها به واتت فعل تواضع حقيقي . قال لها : « او ما تعلمين ان خبز الابناء لا ينبغي ان يُلقى للكلاب » . قالت : « بلى . ولكن الكلاب ايضاً تلتقط الفتات المتساقط عن مائدة البنين » . فلمّا بدت منها تلك الثقة العظيمة طيّب المخلص نفسها وطرد الشيطان من ابنتها . وبهذه الاية أثبت العقول لقبول تعليمه

ومثل ذلك صنع في رحلته الثانية الى لبنان الجنوبي . فانهُ في اثناء انطلاقه الى ارض قيسارية فيلبّوس (١ دنت منهُ امرأة بها تزف دم فلمست طرف ثوبه فشفيت لساعتها . فهذه ارادت ان تخلد ذكر تلك الاعجوبة وتعرب عن عاطفة شكرها الى المحسن اليها ، فاستصنعت صورة تمثلها جاثية عند قدمي يسوع طالبة منهُ ان يبرئها وعلقتها على مدخل دارها . وقد روى اوسابيوس اسقف قيسارية ، وابو التاريخ الكنسي ، ان عشبة نبتت في تلك الصورة

١) هي بانياس الواقعة في سفح جبل حرمون

خوّلها الله قوّة الشفاء من الداء الذي كان مُلمًّا بتلك المرأة (١)

ومن اخص اعمال الرب في تلك البقعة انهُ في مكان قريب من قيسارية فيلبّوس — وهي احدى الكراسي الاسقفية التابعة صور — وعد القديس بطرس بان يؤسس عليه كنيسته وخوّله ملء السلطان عليها . فيصح القول اذًا انهُ منذ ذلك اليوم أسس الدين المسيحي في البلد اللبناني

وقد امتدح السيد المسيح سكان صور وصيدا حين أنّب بيت صيدا وكورزين بقوله : « لانه لو كان لصور وصيدا مثل ما صنع لكما من الآيات لتابتا بالمسح والرماد . » ومما يروى استنادًا الى التقليد ان يسوع في مسيره الى صور استراح عند رأس العين وكانت امهُ العذراء تصحبه اليها ، وتخليدًا لهذا الحادث اطلق اسم بركة السيدة على ما كان يعرف ببئر سليمان . ثم بني هيكل فخم في المدينة نفسها اكرامًا لوالدة الله

وبعد ان صعد يسوع الى السماء اخذ الصوريون والصيداويون يأتون اورشليم ليسمعوا تبشير الرسل فمسّت النعمة قلوبهم واصبحوا هم ايضًا رسلًا يبشرون بالانجيل

ومن المعلوم ان كنيسة صور هي اولى الكنائس التي انشئت بعد اورشليم لان مؤسسيها كانوا قد اظهروا من رباطة الجأش والثبات في الايمان ما ادهش القديس بولس نفسه . وما مضى على رجم القديس اسطفانوس بضعة اعوام حتى كثر عددهم ، من الصوريين انفسهم ، ومن اللاجئين الى تلك المدينة هربًا من الاضطهاد . فنظّم لهم الرسل سلك المراتب الكنسية وجعلوا مدينتهم مطرانية ، فاصبحت على مر الايام مرجعًا لاربعة عشر كرسيًا اسقفيًا

ومما جعل الصوريين يحافظون على وديعة الايمان مرور الرسل بمدينتهم ، وبالمدن الساحلية الاخرى في مسيرهم الى الجهات الشمالية . فانهم كانوا يقضون بضعة ايام في صور وغيرها من الثغور ليحضّوا المؤمنين على السلوك بما يفرض عليهم ايمانهم ، ويكسروا لهم خبز الكلمة ، ويثبتوهم في الايمان ، وينشطوهم للوقوف في وجه المضطهدين

(١) وقد رواه الدويهي في « منارة الاقداس »

وكان اليهود يثيرون الاضطهادات ، او يغرون الوثنيين على اشعال نارها تُصلى بشدَّة عظيمة . وكانت الاوامر تصدر من مجمع اورشليم

حين كان القديس بولس عائدًا الى اورشليم بعد سفرته الاولى الى سورية الشمالية الحّ عليه مؤمنو صور ان يعدل عن فكره لان اعداء الايمان ينتظرون قدومه بفروغ صبر ليميتوه . فشكر لهم عواطفهم الشريفة غير انه بقي مصرًّا على عزمه ، فانقادوا لارادته . لكنهم شيّعوه الى شاطئ البحر ، وقبل ان يركب السفينة جثوا امامه طالبين بركته وصلاته والدموع تجري من عيونهم غزيرةً

كذلك القديس لوقا التقى في صور بتلاميذ كثيرين ادهشته رباطة جاشهم

وكنت اود ان اذكر لكم اسماء اساقفة صور الاولين لكن التباريخ تخلّ علينا بها . بيد ان هذا لا يمنعنا من التأكيد ان صور رئسها اساقفة من عهد الرسل ، لانها كانت اول مدينة خارجة عن تخوم اليهودية والجليل بُشّر فيها بالانجيل . وقد توفقت في الوقوف على اسماء بعض هؤلاء الاساقفة الاولين : مثل كاسيانوس الذي شهد مجمع قيسارية فيلبوس المنعقد عام ١٩٠ للبحث في قضية الفصح ، وزينون الذي حضر مجمع القسطنطينية

وقد شربت ارض صور دماء كثيرين من الشهداء وابعدهم شهرةً الاسقفان تيرانيوس ومتوديوس

وفي صور بُنيت اجمل كنيسة في فينيقية ، دمّرت سنة ٣٠٣ ثم اعاد بناءها بولينوس الاسقف ، ويوم تدشينها خطب اوسابيوس اسقف قيسارية ممجّدًا امجادها

وحاول الاريوسيون ان يستولوا على هذا الكرسي فعقدوا مجمعاً ضد القديس اثناسيوس سنة ٣٣٥ ، فلما عمّ الضلال ان حبطت مساعي اهله . وفي سنة ٥١٨ التأم مجمع آخر في كنيسة صور الكاتدرائية رئسه ابيفانيوس ، رئيس الاساقفة ، لمحاكمة ساويروس الدخيل . فطلب الشعب المتألب حول الدار الاسقفي ان يحرم ساويروس ويوحنا مَنديت ، والاضاليل التي كانا يناضلان عنها ، اي مذهب الطبيعة الواحدة . فلما قطعا من شركة الكنيسة ، دوت اصوات الهتاف اكراماً للعذراء المجيدة ، وصرخ الشعب المؤمن قائلاً : «قد أخزت امُّ الله ساويروس مُقلق الكنائس !»

غير ان هؤلاء الهراطقة تمكنوا بعد اعوام قليلة ، بفضل مساعدة الامبراطرة لهم ، من ان يقيموا في صور وسائر المدن الساحلية وضواحيها. وقد قال بطرس الايباري — الذي عاش في القرن الخامس وكان من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة — انه شاهد ثمّ عدداً كبيراً من الاديار يسكنها من المونوفيزيتيين رجال ونساء عديدون . وفي عام ٦٣٦ خربت صور المسيحية وانتقض فيها نظام المراتب الكنسية . وذلك ان اعصاراً قالعاً هب من الصحراء فدمّر كل ما صادف في طريقه . وبقيت الحال على هذا المنوال الى عهد الصليبيين الذين رمموها . لكنها عادت فخربت بعد ان رحلوا عنها

وتألفت في صيدا جماعة من المؤمنين زارها القديس بولس يوم قذفت الريح سفينته الى شواطئ تلك المدينة ، حينما كان مسافراً الى رومية . فاقام بين اظهرهم مدة قليلة ، تأكد في غضونها انه قد مضى عليهم عشرون سنة وهم ثابتون على ايمانهم فسرّ بهم سروراً عظيماً .

وقد سُقيت تربة هذه المدينة بدم الشهداء ، واشهرهم زينوبيوس الكاهن الطبيب . وشهد احد اساقفتها المدعو تيودور مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ . وفي صيدا عقد مجمع ضم ٨٠ اسقفاً هرطوقياً التأموا ليحرموا المجمع الخلقيدوني وحاولوا ان يعزلوا فلاڤيانوس بطريرك انطاكية ويجلسوا موضعه ساويروس المنافق الشهير ، تلميذ مدرسة الحقوق في بيروت . وكان هذا الرجل قد حاز منزلة ونفوذاً بتزهده وتقشفه واتساع معارفه

وفي سنة ٥٥١ نقلت اليها مدرسة الحقوق البيروتية بعد ان دمر الزلزال مدينة العلم . فنالت شهرة ولمعت مدة ثمانين سنة الى ان مرّ بها الاعصار فلم يبق ولم يذر . فطمس الاسم المسيحي فيها الى عهد الصليبيين ، وحلّ بها ما حلّ بصور

(للبحث صلة)